أناتول فرانس

بلغ أناتول فرانس فى حياته أسمى مايمكن أن يبلغه كاتب عبقرى ، فوصل اسمه إلى أقصى البلاد ، وترجمت مؤلفاته إلى كل اللغات الحية وكثير غيرها ، وطبعت كتبه مئات الطبعات ، ونال من الجوائز والمراتب أرفعها شأناً وأعلاها ذكراً مما تتقطع دونه أعناق أعاظم الكتاب . فمنذ خط طريقه إلى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ ، وفى عام ١٨٩٦ انتخب عضواً فى الأكاديمية فرانسين ، وفى عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على مايقرب من خمسة عشر ألفا من الجنيهات فتبرع بها كلها لأهل روسيا أيام المجاعة التى ألمت بها فى سنى الثورة البلشفية الأولى .

على أن أناتول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقاد يحاسبونه حساباً عسيراً ، ينهشون أعماله ويحللون ويناقشون أفكاره ، فانتهى الكثير منهم إلى أن أناتول فرانس قد نال فى حياته من المجد أكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنه كان على نقيض ما أراد أن ينشره حول اسمه ونجح فيه بفضل (ادعائه ودجله) على حد تعبير البعض منهم ! فقد أراد أن يظهر بمظهر

الرجل الذى جاء إلى هذا العالم ليغرس الرحمـــة فى قلوب البشر المتحجرة ولكنه كان فى نظرهم أبعد الناس عن الرحمة والرثاء للضعفاء والمساكين . قالوا : كيف يمكن أن يحمل بين جنبيه قلباً رحيما وهو الرجل الذى سخر حياته للسخرية من صرعى الحياة ، رجل جاء إلى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من أكبر عدد ممكن من الناس ، كيف يفهم آلام الغير ويحس بأوجاع المتألمين إنسان لم يشعر بالألم الحقيق مرة واحدة فى حياته الطويلة لأنه كان يكره الألم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً إلى سماء اللذات ومتع الحياة !

والمعروف أن أناتول فرانس كان فى كتاباته وأقواله ديموقراطيا بل اشتراكيا متطرفا ، ولكم سخر منه فى ذلك أيضا فريق ناقديه ، ألم يهزأ بالثورات ورجالها فى قصته (الآلهة ظمأى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الإنسانى والثقافة العليا ؟ !

ولقد أضاف النقاد إلى ماسبق فاعتبروا أناتول فرانس «لصا بارعا» سرق كل ماجاء به من الأفكار من آداب وفلسفة الرومان والأغريق على الخصوص ، ولقد بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتباره (مفكراً من الدرجة الثانية) . أما الكاتب العظيم أندريه چيد فقد قال عنه (كان يمكن أن يفيض حبى لأناتول فرانس أكثر مما هو الآن لولا أن عدداً من قليلى التبصر والدراية أرادوا أن يجعلوا

منه كاتبا ممتازاً ... إن قيمة الكاتب كما يقول ستندال هي في قدرته على هز قارئه وأنا حين أقرأ أناتول فرانس لا أشعر مطلقا بأقل اهتزاز)

ولسنا نود أن نذكر شيئا من التحقير والتشهير الذى وجهه إلى أدبه جماعة (ما وراء الحقيقة) Surréalistes لأنه يتعدى حد النقد المعتدل البريء .

على أن أناتول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجه إلى (الأستاذ الأعظم) كما يسميه الفرنسيون حتى اعتبره ميشيل كورداى فى كتابه عنه (نصف إله) .

إن المرء ليشعر بالحيرة حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على أننا سنحاول أن نتجرد من التأثر برأى كل من الفريقين ثم ننظر إلى أناتول فرانس كما كان هو ينظر إلى الناس . لننظر إليه متعالين متكبرين لأن التعالى والكبرياء كما يقول ينفعان فى الحكم على الأمور دون التأثر بتحزب عدو أو الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال أعماله المجردة ولنستعن إلى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال السنين التى انقضت على وفاته من أصدقاء وأعداء على السواء .

* * *

ولد أناتول فرانس فى باريس فى اليوم السادس عشر من

ابريل عام ١٨٤٤ . وكان والده — ويدعى فرانسوا نويل تيبو — بائع كتب ، فنشأ بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون أن يدرى كنهها وقيمتها ، فلما شب قليلا وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب، وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الأسفار .

على أن أحوال حياته العائلية قد أعانته أيضا أكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة ، فلقد عرفنا الآن أن أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيا أن يقضى الصبي أناتول معظم يومه فى الشوارع والطرقات بين أمثاله من الصغار ، لذلك كانت طفولته أقرب إلى التشرد والاضطراب منها إلى الهدوء والاستقرار الذى تخلقه الحياة المنزلية الوادعة ، ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول، وقد ظهر كل ذلك واضحاً فى قصته (كرانكابيل) Craincabille . وعندما شب أناتول فرانس اشتغل مساعداً لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه، ما يحبها وما يكرهها، فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون .

وكان أناتول فرانس يعتز إلى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر أنه كان يعلق بها شأناً خاصاً فى توجيه تفكيره

وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذى كان يمتاز به ، وهذا هو ما دعاه لأن يقول فى (كتاب صديقى) Le livre de mon ami هذه العبارة القصيرة التى تضم روح الاعتزاز والفخار (إنى باريسى بكل نفسى وبكل جسمى) .

فلكى ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحه يجب أن نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث : باريسى صميم — ابن بائع كتب — طفولة متشردة .

* * *

لم يكن أناتول فرانس طالبا مجدا وكان اهتمامه بقراءة الأدب وبناء آمال أدبية أكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية ، بل إنه كان يعتبر أن حياة المدرسة ودروسها كانت حائلا بينه وبين العلم الحقيق إذ يقول : (إنى لم أبتدىء فى التعلم إلا عند ما انقطعت عن الدراسة المدرسية) .

وكان أناتول فرانس طول حياته المدرسية فتاً مشاغباً دائم السخرية من أساتذته ، ومجموعة ذكريات حياته التى كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التى تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة بروح ساخرة ماجنة !

وكانت والدة أناتول فرانس كسائر الأمهات تؤمن إيماناً صادقا بأن ولدها سيصادف النجاح فى جميع مراحل حياته ، أما

والده فكان على الضد شديد الخوف على مصير ولده . وإنك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبه عام ١٨٦٨ ، وكان أناتول فرانس في الرابعة والعشرين ، قال فيـــه (إن ولدى لا يتبع نصائحى فهو لا يزال دون عمل ، إنه يكتب ، بل يجب أن أقول إنه يكتب بأسلوبه الردىء يشوه به الصفحات [١] . إن ما كنت أخشاه منذ صغره قد شاء القدر أن يتحقق الآن . لقد عيل صبرى فى مقاومته فهل سيكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع أن يعول نفسه ؟ واأسفاه !)

والواقع أن أناتول فرانس لم يقبل أن ينتظم فى عمل من الأعمال يحقق به رجاء والديه ، بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد ، مثابراً على إعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغه بعد جهد جهيد .

نعم بعد جهد جهيد . فقد كان الدور التحضيرى لمجده الأدبى طويلا مملا ، إذ قضى سنين طويلة يعمل فى مكتبة أبيه ، وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد أن يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة ، وكان يشتغل فى ذلك الوقت أيضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت أولاها رسالة عن الشاعر الفريد دوڤينى (١٨٦٨) ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر

---

(١) سيرى القارىء فيما بعد أن النقاد يجمعون على أن أناتول فرانس خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية إلى الآن .

فنظم عدداً من المقطوعات جمعت فى مجموعتين ، الأولى بعنوان (القصائد الذهبية) Les poémes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان (الأعراس) Noces Corinthiennes (١٨٧٦) ، وكانت جميع هذه الأعمال بإجماع النقاد خالية من التفكير النير والذهن الصافى فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفى عام ١٨٧٩ نشر أناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته فى التأليف القصصى وهما (چوكاست والقطة النحيلة)Jocaste et le chat maigre فلم تسترعيا إليهما الأنظار .

وفى عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) Le crime de Sylvestre Bonnard فخرج اسمه مرة واحدة من الظلمة إلى النور . وتوالت بعد هذه القصة أعماله الأدبية فكتب قصة (رغبات چان سرڤيان) Les désirs de Jean Servien و (كتاب صديقى) Le livre de mon ami (١٨٨٥) وهو الكتاب الأول من كتبه الأربعة التى ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب Balthazar و (تاييس) Thaïs (١٨٩٠) و L'étui de nacre و (آراء چيروم كوانيار) Opinions de Gérôme Coignard و (مطبخ الملكة بيدوك) La rôtisserie de la reine Pédauque [1] و (الزنبقة الحمراء)

---

(١) يكاد يجمع النقاد أن قصته (مطبخ الملكة بيدوك) هى خير قصصه على أن هذا الرأى لا يتفق ورأى أناتول فرانس نفسه . إذ يقول (إذا أعدت كتابة كل قصصى فان القصة الوحيدة التى أعيدها كما هى كلمة بكلمة هى قصة Histoire comique) فهى فى نظره خير قصصه .

Lys rouge و (حديقة إبيقور) Gardin d' Epicure و (آبار سانت كاير) Puits de Sainte Claire (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ إلى عام ١٨٩٢ كان أناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الأدبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الأدبية Vie littéraire

إلى ذلك الوقت كان نشاط أناتول فرانس قاصراً على فنه الأدبي حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة تجذبه إلى غمار السياسة ووقف معارضا لدردا لتلميذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الأربعـــة فى (التاريخ المعاصر) Histoire contemporaine وهى Le mannequin d'osier و L'orme du maïl وL'anneau d' Améthyste وM.Bergeret à Paris

وفى أثناء هذه المدة ظهرت قصتاه Clio و Pierre Nosière وهو الكتاب الثانى من ذكرياته .

ومضى أناتول فرانس يوالى إنتاجه القصصى وهو يسعى جهده فى أن يغير طابع أعماله الأدبية من قصص تشرح أفكاره الفلسفية ونظراته العامة إلى أخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه المرحة فكتب فى هذه الفترة من حياته من النوع الأول قصصه Sur la Pierre blanche وL'ile des pingouins و Vers les temps ومن النوع الثانى meilleurs Les sept femmes de barbe-bleue, و Histoire comique و Les contes de Jacques Tournebroche

وفى عام ١٩٠٨ نشر أناتول فارنس كتابه (حياة جان دارك) Vie de Jeanne d'Arc الذى حاول به أن يخرج عن طريقته فى معالجة التاريخ كقصاص إلى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على أن أناتول فرانس قد أخفق فى تحقيق ماتمنى .

وفى عام ١٩١٢ نشر أناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les Dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La révolte des anges وبكتابيه Le petit pierre و La vie en fleur أتم أناتول فرانس كتبه الأربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر فى ختام كتابه الأخير La vie en fleur أن هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والأخلاق والعادات) وأن التغيير الذى حدث ينحصر فقط فى تغيير الأسماء وأحوال معظم أشخاصها .

* * *

تفتحت عينا أناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجرى صور الحياة فى هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شيء) وكان غرامه النادر بالكتب والدرس الممتزج بروحه الشاعرة يجعله يهيم بأرصفة نهر السين (القديمة الحزينة — كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل ، أجمل مكان فى العالم ، حيث تجتمع الأشجار والكتب وتمر النساء أمام العيون) وكانت نفسه الفنانة تدفعه إلى طول التأمل فى (اللوفر)

و (كنيسة نوتردام) وغيرهما من آثار قرون المجد السالفة، تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبا بعد بازدحام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة. فلم يكن غريباً إذن أن يطبع كل ذلك نفس أناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين إلى الماضي السحيق فانكب منذ صغره على دراسة آداب الإغريق وعلومهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوقريطس أو أهل المجون مثل أبيقور، ولقد تأثر فرانس أيضاً بالآداب اللاتينية وإن كان تأثره بمظاهر الحياة أكثر من تأثره بأفكار الكتاب، كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره، ولا يجب أن ننسى أيضاً ما كان بين أناتول فرانس ومفكري القرن التاسع عشر مثل رونان وشوبنهور ودارون من التجاوب الروحي والفكري.

من ذلك نرى أن أناتول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى أنه يؤثر عنه قوله (لست أعثر على شيء جديد إلا في كتاب قديم).

* * *

إن فن أناتول فرانس ما هو إلا صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها

وعاشرها ، كذلك الآراء التى سردها على لسان أبطاله هى فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وماوصل إليه فهمه للحياة والناس .

كان أناتول فرانس سطحى النظرة الى الحياة ولعل هذا هو السبب فى خلو أفكارة من العمق الفلسفى ، فهو لم يحاول أن يتغلغل إلى أعماق عوالم يجهلها ليكشف عن أسرارها ثم يصبها فى فنه ، بل كان ينظر إلى الحياة نظرة متفرج كأنه قائد يجلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قابع مستريح . ولقد شرح أناتول فرانس فلسفته فى ذلك فقال (لقد كنت دائما ميالا فى كل وقت إلى النظر إلى الحياة كما ينظر الإنسان إلى منظر من المناظر الطبيعية . فلم أكن يوما من الأيام ملاحظا مدققا لأن الملاحظة لابد لها من طريقة توجهها وأنا ليس لى طريقة من الطرق . إن الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجهها الوجهة التى يريدها ، أما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعا بما تراه . لقد ولدت متفرجا وسأحافظ طول حياتى — كما أعتقد — على السذاجه العظمى التى تميز أطفال باريس ، تلك السذاجة التى تجعلهم يحبون كل شىء والتى يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون)

والواقع الذى لا سبيل إلى إنكاره أن أناتول فرانس قد جمع فى نفسه سجايا المتكبر المغرور ، ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية ، فأصبح ينظر

إلى الجيل الذى نعيش فيه كما ينظر آباؤنا وأجدادنا إلينا . إنهم ينظرون إلينا بعيون ملؤها الإشفاق والرثاء كأننا مهما نلنا من سعادة متصورة أو علم نزهو به وهو فى نظرهم قشور لا يمكن أن نبلغ ما بلغوا من سعادة ولا يمكن أن تحوى عقولنا ما حوته عقولهم من معارف ! تلك كانت نفسية أناتول فرانس وكأنه كان يقصد نفسه بقوله (متى توصل الإنسان إلى فهم كل شىء لم يرد شيئاً). لذا كان أناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفى عليه من الأمور . كان كبرياؤه العجيب يدفعه إلى الإيمان بأن كل ما يجهله لا يستحق أن يعرف ! ولذا لم يكلف نفسه عبء التغلغل إلى صميم الأشياء لكى يصل إلى فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذى يقول (إن علم الحياة الحقيقى هو احتقار كريم للناس أجمعين) .

لقد فرض أناتول فرانس الشر فى كل شىء وكان يجد العزاء فى أحضان الملذات ينتهبها انتهابا ، وكان إيمانه بمذهب إبيقور فى التمتع بالحياة بأكبر لذة مستطاعة إنما وصل إليه بعد تفكير هادىء رزين . ولقد بلغ به حبه للذة لمجرد اللذة أن أنكر الغيرة (التى لم أشعر بها قط طول حياتى) كما قال . كما أنكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية) .

* * *

كان تفكير أناتول فرانس يدور حول أمرين : الأول (الشك) Scepticisme والثانى (الاشتراكية) ، والأمر الأول يحدد نفسيته العامة ورأيه فى الأديان ، أما الأمر الثانى فيبين فكرته السياسية والاجتماعية .

كان أناتول فرانس يهزأ بكل رأى ويسخر من كل فكرة فجميع الآراء والنظريات فى نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها . وأى سخرية أشد من تلك التى جعلته يقول على لسان أحد أبطال قصة (رغبات چان سرڤيان) هذا القول (إن رأى العالم أجمع لايستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) . فأنت ترى أن أناتول فرانس كان ينظر إلى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازىء بكل من حوله حتى دفعه ذلك إلى القول (كل قاعدة بحثت فى أصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر حتى علمت أنها لم تكن قاعدة) وفى (حديقة إپيقور) يقول (كلما فكرت فى الحياة الإنسانية زاد اعتقادى أن السخرية والشفقة هما الوسيلتان للنظر إليها والحكم عليها ، إذ أن السخرية والشفقة ناصحان رفيقان . فالسخرية تحبب إلينا الحياة والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التى أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . إنها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، إنها السخرية الهادئة الكريمة . فالابتسامة الساخرة تسكن سورة

الغضب وهى التى تعلمنا التهكم بالأشرار والحمق وبدونها نضعف ويتسلط علينا الحقد والضغينة) .

ولقد أراد أناتول فرانس أن يرسم نفسه فى كتابه (آراء جيروم كوانيار) ففى مقدمة الكتاب تراه يحلل شخصية أجيروم فيصفه بأنه (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما فى نظر ناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هذا (فيلسوف ومسيحى) تأثر باثنين كان لهما الأثر الأكبر فى تفكيره . . الأول إبيقور الذى اكتسب منه انطلاق الرأى وحرية الفكر ، والثانى سان فرانسوا داسيز الذى أخذ منه بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول . والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوانيار) لا يلبث أن يحس بذلك الجموح الذى يغمر آراء جيروم وبتلك الروح الماجنة الساخرة التى تجعله يعصف بالدين والأخلاق والتشريع والفكر الإنسانى وكل ما اصطلح على تمجيده وتقديسه . وحتى العقل الذى طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته إذ يقول فى نهاية هذا الكتاب (إذا أردنا أن نخدم الناس فيجب أن ننبذ كل منطق وتفكير ونلقى به كما نلقى بأثاث يضايقنا . يجب أن نطير على أجنحة العاطفة والحمية أما التفكير والتمعن فلا . إن الإنسان إذا فكر فإنه لن يتقدم مطلقا تقدما محسوسا) !

ولقد كان طبيعيا أن يؤدى شك أناتول فرانس إلى عدم الإيمان

بالله فقد كان ماديا عنيدا وكان نقده للكنيسة ورجالها لامثيل له إذ كان يعتقد أنها العدو اللدود لكل فكر حر ورأى مستنير .

ولقد لخص أناتول فرانس كل آرائه فى الدين فى كتابه (أحاديث عن وجود الله Entretiens sur l'existance de Dieu) الذى كتبه فى آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمه الى صديقه الكاتب ميشيل كورداى وعهد إليه بنشره فظهر بعد موته بعام .

كان هذا الكتاب آخر ماخطته يد أناتول فرانس فى عالم التأليف وهو كتاب يفيض بالجرأة والجموح ففيه يقول (نعم أننى بالتأكيد ملحد . لقد فكرت وكل من وصل إلى قدر معين من الذكاء لا يستطيع ان يكون غير ذلك . إننى لا أبغى شيئا من وراء إعلان إلحادى وكل ما أريد قوله هو أنه حتى فى العهود التى كان الدين مسيطرا فيها على كل شىء كان هناك عدد من الكافرين أكثر من عددهم الآن وكل ما هنالك أنهم كانوا عاجزين عن إظهار مايبطنون) . والدين فى رأى فرانس حدث لابد منه فى المجتمع الحاضر (فالمؤمن المتدين هو الشخص الغارق فى الخطيئة الذى يأمل بتدينه الصفح والغفران أو المعذب البائس الذى فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة) . ثم انظر كيف يجد أناتول فرانس فى الألحاد والكفر نعيما نفسيا لا يقبل التنازل عنه حين يقول (إن الحزن الفلسفى قد فسر نفسه أكثر من مرة

تفسيرا رائعا مكتئبا . فكما أن المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حد من الجمال المعنوى يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع ، كذلك العالم الذى اقتنع بأن كل مايحيط بناماهو إلا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء . إن الذين يتذوقون جمال ذلك الهم الدفين لا يقبلون أن يستبدلوه بالمسرات الجامعة والأمانى الوهمية التى تلازم رجل الشارع) .

رأينا أن الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن أناتول فرانس فإذا أردت أن تفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدتهما ترجمان إلى خيبة أمله فى النفس الإنسانية والفكر الإنسانى ، فنحن كما كنا منذ عشرات القرون لا نزال ننغمس فى حمأة الرذائل والنقائص الأخلاقية والفكرية . فإذا أردت أن تعرف بعد ذلك السبب الذى إليه يرجع أناتول فرانس كل هذه الرذائل والنقائص وجدته يرجعها إلى المال .

فالمال . المال عند أناتول فرانس هو الأساس الذى قامت عليه دعامة معظم الرذائل الإنسانية . لذلك نراه رغم استهتاره بكل شىء ونظرته المتشائمة اليائسة كانت تمر عليه بين حين وحين بسمات مضيئة من الأمل العريض فى مستقبل البشرية . فقد كان يعتقد ان شيئاً واحداً لو تحقق لأنارت العالم السعادة الخالدة والهناءة العميمة . ذلك الشىء هو تحطم سلطة المال وتغيير

النظام الاجتماعى الذى نعيش الآن فى ذيله ليحل محله نظام اشتراكى ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغنى وعبودية الفقير ، ذلك أن (الأخاء بين الناس — كما يقول — هو النتيجة المحتمة للاشتراكية) . وهو يقول أيضاً (إن السلام العالمى سوف يتحقق يوماً من الأيام ، لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليه الآن — فليس من السهل التعلق بهذا الأمل — بل لأن نظاماً جديداً للأشياء أو علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة فى الماضى أن يعيشوا فى حالة حرب دائمة) .

وكان أناتول فرانس يرى أن اتحاد الطبقات العاملة من الوسائل الأكيدة لحفظ السلام العالمى وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب ، وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة (يظن البعض أن المرء يموت فى الحرب من أجل الوطن . كلا ! إنه يموت من أجل أصحاب المصانع) .

على أن أناتول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة إنسانية عظمى كان لا يؤمن بسيادة الجماهير وبالتالى كان لا يؤمن بالديموقراطية ، ولذا هاجمه النقاد واتهموه بالتذبذب والتجرد من أولى صفات الأديب العظيم والتعلق بمثال إنسانى أعلى ، واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء ومهاجمته لسلطان المال

والأغنياء نوعاً من الدجل الفكرى الذى اتخذه سلماً لبلوغ قمة المجد الأدبي . على أن أناتول فرانس رغم عدم إيمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهورى على غيره من نظم الحكم الراهنة (لأنه أخف من غيره إيذاء وأقل ضرراً ، فهو ليس العدالة ولكنه أقرب إلى البساطة والطبيعة من غيره من النظم) .

ويفسر إميل فاجيه كره أناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بأن فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان ومايتخذ صورتها كالثورات العنيفة . ذلك أن الجماهير التى عض أحشاءها الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين ، هذه الجماهير حين تنفجر أنفاسها المخنوقة فى ثورة تأكل فى طريقها الأخضر واليابس نراها تتخذ مثل الثورة الأعلى ديناً تمجده كسائر الأديان فتتعصب له وترتكب فى سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام التى يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم ، وقد أظهر أناتول فرانس ذلك فى قصته (الآلهة ظمأى) .

ورغم التناقض الذى نراه فى كثير من جوانب تفكير أناتول فرانس فإن الذى لاريب فيه أنه كانت تجرى فى دمائه روح العدل والمساواة وكان قلبه الكبير يفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر . وإذا كان همه طول حياته السخرية والتعالى فهى سخرية الأب

الرحيم والمفكر الواسع النفس الخالص الوفاء . ولقد بقى حتى آخر نسمة من حياته يردد قوله (إن الاشتراكية هى ضمير العالم وأن النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهى إلا باختفاء هذه الطبقات) .

. . .

وإذا كان النقاد قد اختلفوا فى تقدير قيمة أعمال أناتول فرانس وتفكيره فإن سوادهم متفق أنه خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية إلى الآن ، بل منهم من يعتقد أن ما يمتاز به أسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له فى الآداب الفرنسية جميعاً .

لقد كان أناتول فرانس هو المنقذ الأكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور والانحطاط بعد الثورة الكبرى . ورغم أنه كان فى تفكيره ثائراً ناقماً على الأفكار جميعا إلا أنه كان بالعكس من جهة اللغة محافظاً فأعاد لها مجدها القديم مضيفاً إلى ذلك عبقريته الخاصة فى حسن الصياغة والدقة النادرة فى الإحساس بجمال الألفاظ والتعابير .

ولقد كانت سهولة أسلوبه وابتعاده عن التكلف هى ميزته الكبرى ، وكان يفتخر قائلا (إن كمية ألفاظى اللغويه محدودة فقيرة) وكان إيمانه بوجوب السهولة المطلقة فى الأساليب تدفعه الاعتقاد — بخلاف الكثيرين — أن الصحافة تساعد على تقدم

أسلوب الكتابة لأنها بإرغامها الكاتب الصحفى على الإسراع فى الكتابة تحول بينه وبين التكلف والافتعال فيخرج أسلوبه طبيعيا مستقيما سلسا .

لقد كان أسلوب أناتول فرانس — كما يقول الناقد پول سوداى — فريداً لا يمكن تقليده . ولقد صدق چول لومتر فى قوله (لقد كان أسلوب أناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى أساليب راسين وڤولتير وڤلوبير ورينان ... وأسلوب أناتول فرانس دائماً) .